دراسة المجتمع الافتراضي: إشكالات ابستمولوجيا

The study of the virtual community: epistemological problems

مصيبح فريدة1، د. شاشة فارس2،

[1] مخبر المجتمع الجزائري الحديث- جامعة محمد لمين دباغين – سطيف2 الجزائر، f.mecibah@univ-setif2.dz

[2] مخبر المجتمع الجزائري الحديث- جامعة محمد لمين دباغين – سطيف2 الجزائر ، f.chacha@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: ../../2020 تاريخ القبول: ../../2020 تاريخ النشر: ../../2020

ملخص:

إن ما أصطلح على تسميته بالمجتمعات الافتراضية، هي أنساق اجتماعية غير واضحة المعالم، بنيويا ووظيفيا، تجذر دراسة سياقات تشكلها، وآليات التفاعل فيها، من حيث كيفيات التواصل والتفاعل، ومن حيث تأثيراتها على ثقافة الفرد و سلوكاته وأدواره الاجتماعية، نظرا لطبيعتها المعولمة، و المحكومة بالوسائط الاتصالية. ولذلك، فإن دراسة المجتمعات الافتراضية، تضع الباحثين أمام إشكالات ابستيمولوجية، نظرية ومنهجية، تستدعي الكثير من الدقة، لتحديد أو استحداث بدائل نظرية ومنهجية ملائمة، لتفسير الظواهر الاجتماعية الافتراضية.

و في هذه الورقة، سنتقصى أهم المعيقات المنهجية والنظرية التي يواجهها الباحثون في دراستهم للمجتمعات الافتراضية، و من تمة، الكشف عن أهم البدائل المنهجية و النظرية التي تم الاعتماد عليها من أجل بناء نماذج تحليلية، قابلة للقياس.

كلمات مفتاحية: المجتمع. الافتراضي.، الإشكال. الابستيمولوجي، النتنوغرافيا، البدائل المنهجية، البدائل النظرية، علم. الاجتماع. الرقمي

Abstract:

What has been termed as virtual communities, are social systems that are not clearly defined, structurally and functionally, the contexts of their formation, and the mechanisms of interaction in them must be studied, in terms of the modalities of communication and interaction, and in terms of their effects on the culture of the individual, his behavior and his social roles, given the For its globalized nature, and governed by communication media. Therefore, the study of virtual societies puts researchers in front of epistemological problems: theoretical and methodological, that require a lot of accuracy, to identify or

develop appropriate theoretical and methodological alternatives to explain hypothetical social phenomena.

Keywords: Virtual society; Epistemological questions; netnography; methodological alternatives; theorical alternatives; digital sociology.

مقدمة:

لطالما شكل النسق التكنولوجي في العصر الحديث، خصوصا فيما تعلق بوسائل الاتصال والإعلام ووسائطها، منذ النصف الثاني من القرن العشرين، عاملا محوريا في اختراق رتابة الحياة الاجتماعية وتغيير نمط الممارسات اليومية للأفراد، وأفرز كيانات اجتماعية جديدة، أصبحت تشكل عالما بديلا يقضي فيه الأفراد جل أوقاتهم، يُتجاوز فيه البعد الزمكاني للتواصل والتفاعل ونسج العلاقات.

و في كل مرحلة من مراحل تطور وسائل الاتصال، وبروز تأثيراتها على نمط الحياة الاجتماعية، يسعى الباحثون إلى تقصي تلك التأثيرات، للكشف عن الشبكة العلائقية التي تربط بين الأسباب والنتائج، مستخدمين في ذلك بدائل منهجية مختلفة: كمية وكيفية، ومداخل نظرية ومنظورات معرفية، مستمدة من المجال المعرفي الذي ينتمي إليه البحث، وتتلاءم مع طبيعته وأهدافه، وتؤطره لتقديم التحليل والتفسير العلمي الصحيح للظاهرة المدروسة.

لكن القفزة النوعية التي أحدثتها وسائط التواصل الاجتماعي، وعلى رأسها: فيسبوك وتويتر و انستاغرام، قد أدى إلى ظهور بعد وجودي آخر للأفراد، قوض شبكة علاقاته الفعلية المبنية على أهمية البعد الجغرافي، ونقله من الوجود الفعلي إلى الوجود الافتراضي، ضمن ما اصطلح على تسميته في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية بالمجتمعات الافتراضية، التي أضحت أنساقا اجتماعية غير واضحة المعالم، بنيويا ووظيفيا، تجذر دراسة سياقات تشكلها، من حيث كيفيات التواصل والتفاعل وتشكل العلاقات، وتمثلات الأفراد لهوياتهم الرقمية، وكذلك، دراستها من حيث تأثيراتها على ثقافة الفرد و سلوكاته وأدواره الاجتماعية، نظرا للطبيعة المعولمة لهذه المجتمعات، والتي مهما بلغت درجة تماسك أفرادها ومستوى تفاعلهم وتبادلهم الفكري والثقافي، تبقى محكومة بالوسائط الاتصالية، مما يوحي في بعض الأحيان بطابعها الوجودي الوهمي والمؤقت.

ثم، إن دراسة المجتمعات الافتراضية، وهي بهذه الخصائص، تضع الباحث أمام إشكالات ابستيمولوجية، تتعلق بتصوراته ومعارفه النظرية والمنهجية السابقة، وإمكانية دراستها بما ينطوي عليه التراث المعرفي السوسيولوجي للمجتمعات الفعلية، من نظريات ومناهج، وتجعله يقف أمام معضلات، تستدعي الكثير من الجهود البحثية، وتجبره على السعي لإعادة النظر في المقاربات المنهجية، خصوصا بعد سيطرة النزعة الكمية على البحوث الاجتماعية، والتي أبدت في معظم الأحيان قصورها في دراسة مجتمعات فضاءات الأنترنت، مما أسفر على تكييف بعض المناهج لاستحداث أخرى، تعتمد على تحليل محتويات الرسائل الاتصالية بمختلف أنماطها: كلمات أو نصوص أو صور أو مقاطع صوتية أو غيرها، باستخدام برامج و تطبيقات خاصة، تعمل على تحويل تلك البيانات الميدانية إلى معطيات، تمكننا من بناء نماذج تحليلية قابلة للقياس، وبهذا يكون قد شكل تجاوزا ابستيمولوجيا لمعضلة منهجية في دراسة المجتمعات المحكومة بالوسائط الاتصالية.

من جهة أخرى، فإن الأطر النظرية لتفسير الظواهر الاجتماعية في الواقع الفعلي، لا يمكن الاعتماد على تراثها السوسيولوجي كمقاربات لإجراء اسقاطات كاملة في دراسة المجتمعات الافتراضية، نظرا لمرونة البعدين: الزماني و المكاني في التفاعلات الافتراضية، "والأشكال الجديدة التي ظهرت في مجال الترابط والانتماء" ، وظهور مفاهيم جديدة، كالتفاعلات الافتراضية والعلاقات والافتراضية، وهو ما وضع الباحثين أمام تحديات تستدعي الارتكاز على الرصيد المعرفي الخاص ببعض مجالات العلوم الاجتماعية، كعلم النفس واللغة، لفهم وتفسير سلوكات الأفراد الاجتماعية في العالم الافتراضي، دون الخروج عن المبادئ المعرفية لتأويل الأفعال الاجتماعية، في إطار الاتجاهات النظرية السوسيولوجية الحديثة.

وفي هذه الورقة سنبحث بطريقة تحليلية موضوع أهم المعيقات المنهجية و النظرية التي تواجه الباحثين في دراستهم للمجتمعات الافتراضية، وما هي أهم البدائل المنهجية والنظرية التي تؤطر هذا النوع من البحوث الاجتماعية، والإجابة على التساؤل الإشكالي

الأساسي: ، ما هي الإجراءات المنهجية والنظرية التي تم تبنيها لدراسة المجتمعات الافتراضية لتجاوز هذه العقدة الابستيمولوجية؟

1. مفهوم الابستيمولوجيا:

يعتبر مفهوم الابستيمولوجيا من المفاهيم الأساسية في الدراسات السوسيولوجية، ينطوي على الاشتراطات الأساسية لتحقق المعارف العلمية الصحيحة، ويمكن اعتباره نظرية للمعرفة العلمية، تقوم على "الوسائل العلمية الحديثة كالقياس والإحصاء والتجارب والآلات العلمية المتطورة".

2. المجتمع الافتراضي:

2.1 المفهوم:

في كتابه: عالمنا الافتراضي: ما هو؟ و ما علاقته بالواقع؟، يورد بيير ليفي مقولة لجيل دولوز مفادها: "يملك الافتراضي واقعا كاملا بصفته افتراضيا" ، و يوضح أن المجتمع في حركة تغير دائمة، طالت حتى بنيته و تركيبته الاجتماعية و أشكاله التفاعلية، ففي مجتمع ما بعد الحداثة، يعتمد الأفراد في حياتهم على بنى تحتية تكنو-اتصالية، تشكل وسطا جديدا يبني فيه الأفراد شبكات علاقات، تعتمد على اهتمامات مشتركة، ظهر في سياقها ما أصبح يعرف بالمجتمع الافتراضي، الذي هو واقع خارج الواقع الفعلي و امتداد له، و يعكس كيف يمكن أن تتغير هوية الفرد، و أفكاره و مواقفه و سلوكه الاجتماعي، ضمن هذه البيئة البديلة، المعولمة، التي تتسم بالتغير السريع و العميق، في البنية و الوظيفة و الخصائص.

2.3 سياقات التشكل:

يرى الباحث لوفيفر le febvre أن "وجود الإنسان ينتمي إلى ثلاثة فضاءات أساسية، وهي: الفضاء الفيزيائي التقليدي، الفضاء العقلي والفضاء المعلوماتي"، ولئن كان الإنسان في الفضاءين: الفيزيائي والعقلي يعبر عن التجليات المادية والفكرية لوجوده، فإن الفضاء المعلوماتي يعكس وجوده الافتراضي وحياته الرقمية في وطنه البديل ومجتمعه الافتراضي، الذي أصبح مجتمعا موازيا للمجتمع الفعلي، وأحد البنى ذات البعدين: التقني والاجتماعي.

إن ظهور المجتمعات الافتراضية لم يكن عرضيا، أو مقصودا بعينه، وإنما جاء ضمن سيرورة اجتماعية تتداخل فيها العوامل التقنية والاجتماعية والسياسية لمجتمع ما بعد الحداثة، يمكن تصنيفها في سياقات ثلاث:

- سياق تطور النسق التكنولوجي: إن تكنولوجيا الاتصال الحديثة تشكل محورا رئيسيا لإدارة الأعمال اليومية، واعتماد الأفراد عليها في حياتهم قد فرض عليهم ممارسات تواصلية يومية بين جماعات بشرية مختلفة، لإشباع حاجاتهم، كالتسويق والتأثير في الرأي العام والترفيه وغيرها. و "الأنترنت، كآلية من آليات تكنولوجيا المعلومات، بما تعنيه من كمبيوتر وما يتبعه من استخدامات لآليات البحث على صفحات الأنترنت، إنما هو منظومة معلوماتية أيضا بما تعنيه هذه المنظومة من ثقافة وتجارة ومجتمع"، نجمت عنه رقمنة لمعظم مناحي الحياة الاجتماعية للأفراد.
- سياق العولمة: كل هذا يحدث ضمن بيئة تتسم بالبعد المعولم، الذي تختفي يه الأبعاد الجغرافية والسياسية، وتلتقي فيه القيم والثقافات، على اختلاف مرجعياتها و تباين مصادرها، ضمن شبكات معلوماتية مفتوحة، يقضي الفرد فيها معظم أوقاته، سواء للعمل أو للترفيه، وهو ما أدى إلى استلابه واغترابه عن مجتمعه، واندماجه فيه بشكل شبه كلي، يكون مآله الأخير بناء مجتمع افتراضي عالمي، تتغير فيه دلالات لمفاهيم أساسية مرتبطة بتكون المجتمعات، على غرار الهوية و التفاعلات والعلاقات والقيم.
- سياق ما بعد الحداثة: ثم إن تأثيرات التفاعلات الافتراضية على الحياة الاجتماعية اليومية للأفراد و الجماعات، لا يمكن دراستها و فهمها بمعزل عن السياق الاجتماعي الذي تتواجد فيه، وعن فلسفة عملها، والتي تفترض دائما أن وسائل الاتصال والتواصل تقوم على ثنائية القوة والخضوع، والتي من خلالها تتحدد من هي الجهة الأكثر هيمنة وتوجيها لسلوكات الأفراد والتأثير على ثقافتهم، خصوصا في الفترة المتأخرة، أو ما يعرف عند علماء الاجتماع بمرحلة ما بعد الحداثة، التي تتسم بسيطرة القوى الناعمة على عمليات التغيير الكبرى.

3. الإشكالات المنهجية في دراسة المجتمعات الافتراضية:

عادة، يسعى الباحثون في مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية، إلى تحري الموضوعية العلمية، التي تضفي مصداقية أكثر على أعمالهم وأبحاثهم الميدانية والنظرية، تضطرهم إلى بذل الكثير من الجهود البحثية لإثراء بحوثهم، وتقديم تفسيرات صحيحة لما يدرسونه، نظرا لما تتميز به من صعوبات مرتبطة بطبيعة وخصائص مواضيعها. وترتبط معظم الإشكالات المنهجية بالمنهج النتنوغرافي، البديل المنهجي الأكثر ملاءمة، والأكثر اعتمادا في دراسة المجتمعات الافتراضية.

1.4 المنهج النتنوغرافي في دراسة المجتمعات الافتراضية:

من الناحية اللغوية، يتركب مصطلح النيتنوغرافيا (**Netnography**) من شقين أساسين: الإثنوغرافيا (**Ethnography**) والنت (**net**)، والإثنوغرافيا هي شكل من أشكال البحوث النوعية (**Qualitative researches**)، التي تتيح للباحثين تحصيل وجمع البيانات داخل السياقات الثقافية أو الاجتماعية لموضوع الدراسة، بينما تعتبر النيتنوغرافيا منهجا تأويليا (**Interpretive Method**)، إبتكرت خصيصا لدراسة سلوك الأفراد وثقافاتهم وممارساتهم داخل فضاءات الإنترنت، عن طريق آليات نظرية ومنهجية مستنبطة من علوم إجتماعية متعددة.

فقد كانت المجتمعات التقليدية والجماعات البدائية، تدرس بواسطة المنهج الاثنوغرافي، ويشمل طائفة من الإجراءات، سواء تلك التى تقوم بملاحظة سلوك الجماعة الاجتماعية ملاحظة مباشرة، أو تلك التى تقوم بإعداد وصف مكتوب لذلك السلوك.

والبحث الاثنوغرافي هو طريقة وأداة لفهم أساليب مجتمع أو جماعة ما، وطرقه في الحياة اليومية، من خلال معرفة أفكار أفراده، ومعتقداتهم وقيمهم وسلوكياتهم وطرق تعاملهم مع محيطهم، دون الإستعانة بمترجم حتى يستطيع فهم حياتهم الاجتماعية بدقة أكبر. وبانتقال المجتمعات إلى البيئة الرقمية، وظهور الجماعات الافتراضية، ظهر المنهج النتنوغرافي، الذي كانت بدايات ظهوره تتعلق بدراسة سلوك الزبائن والمتسوقين في شبكة الانترنت، ثم استخدم لتحليل المجتمعات الافتراضية وطرق بنائها و تشكلها و تطوراتها و أهم

المواضيع التى تناقشها، حيث تعد النتنوغرافيا المنهج الأمثل لدراسة الفضاءات السيبرانية و جغرافياتها الثقافية و الإجتماعية، إذ أنها تتفوق على الإثنوغرافيا الكلاسيكية من حيث أنها أقل تكلفة، و توظف تقنيات أكثر مرونة تتيح للباحث تغلغلا و نفاذا أعمق داخل البيئات الإفتراضية، كما أنها أقدر على مواجهة الوضعيات الصعبة و المركبة التي يصادفها الباحث ضمن البيئات الإفتراضية. فمن خلال الملاحظة بالمشاركة والنفاذ (**access**)، يتيح المنهج النتنوغرافي للباحثين فرصة للتعرف على مظاهر جديدة في الحياة الاجتماعية الشبكية، ويسمح بمعاينة كيفية إنتاج وتوليد الممارسات الإجتماعية والثقافية، وتشكل الجماعات الإفتراضية بوساطة الإتصال الرقمي.

ويهدف البحث النتنوغرافي في أساسه إلى دراسة المعاني الرمزية، وأنماط تفاعل مستخدمي الإنترنت واستهلاكهم للمضامين الثقافية، في السياق الاجتماعي للفئات الرقمية، فالنتنوغرافيا هي آلة منهجية للبحث في التفاعلات الافتراضية وما ينجم عنها من ثقافات وأطر معيارية وممارسات ورمزية عن طريق الملاحظة بالمشاركة.

بالرغم من هذه المزايا، والإجراءات الدقيقة للمنهج النتنوغرافي في دراسة المجتمعات الافتراضية، إلا أنه تعترضه جملة من المعيقات، تتمثل على العموم في:

1.1.4 جمع البيانات: في المجتمعات التقليدية (الفعلية)، تعد تقنية المسح: سواء عن طريق الاستبيان او دراسة حالة اهم التقنيات المستخدمة لجمع المعلومات في حقل العلوم الاجتماعية، ويعد الافصاح عن الذات (**self-report**)، الاساس الجوهري لعملية المسح، حيث تتوفر ظروف طبيعية في الاجابة عن الاستمارة، تختلف الى حد كبير عن الظروف الاصطناعية التى تسود المخبر، إذ انه يسمح بمعرفة تقاطعات وتشابكات المعطيات الديموغرافية والاجتماعية مع المواقف والتصورات والرؤى.

وعند دراسة المجتمعات الافتراضية، فانه يتوفر للباحث كم ضخم من البيانات التي يمكنه جمعها وتحليها، حيث تتجلى عادة هذه البيانات في الفضاءات الافتراضية من خلال ثلاث أشكال:

- ✓ معطيات يجمعها الباحث بشكل مباشر من خلال فضاء المجموعة قيد الدراسة، شرط أن يكون الباحث فردا من المجموعة،
- ✓ معطيات يتم جمعها عن طريق تسجيل التفاعلات الافتراضية (الصوتية)، ومضامين الاتصال،
- ✓ معطيات يتم بناؤها واستنتاج تفاعلات الفاعلين عن طريق الملاحظة المباشرة للباحث: (استخدام النانتوغرافي ص 16/10)

وتتيح المجتمعات الفعلية التواصل بين الأفراد الذين قد يترددون في التفاعل وجها لوجه، أما في المجتمعات الافتراضية، فإنهم يعبرون عن آرائهم وأفكارهم بحرية أكثر، وهو ما يعطى دقة في البيانات المجموعة، وبالتالي تسمح الدراسات المسحية الإفتراضية للباحث بالوصول الى عدد كبير من الأفراد ذوي الخصائص المشتركة، وفي فترة زمنية وجيزة، على الرغم من إمكانية وجودهم ضمن مسافات جغرافية متباعدة.
لكن نتيجة فتح المجال لأي شخص في التعبير عن آرائه وأفكاره في المجتمعات الافتراضية، فإن ذلك أدى إلى أن البيانات التى تجمع تكون كبيرة الحجم وغير مترابطة، عكس الاستبيانات التقليدية أو الالكترونية، المستخدمة في دراسة المجتمعات الفعلية، لذا يتحتم على الباحث أن يعيد تنظيمها وتهذيبها وحذف البيانات التي لا قيمة لها، مما يؤدي إلى إطالة الفترة الزمنية المستغرقة لدراسة المجتمعات الافتراضية.

2.1.4 أخلاقيات جمع البيانات: كما أشرنا سابقا، فإن تعليقات الأفراد في المجتمعات الافتراضية تمتاز بالحرية و الأريحية، حيث تمكنهم بنية المجتمع الافتراضي الإنفتاحية، بالتعبير بحرية عن آرائهم و أفكارهم، من جهة أخرى، وعندما يقوم الباحث بجمع هذه البيانات من هذا المجتمع الافتراضي، سواء جمعا يدويا أو آليا،فإن المبحوث لا يعرف بأن بياناته سوف تجمع وتدرس، وهو ما ينتج عنه إشكاليات أخلاقية كثيرة، حددها الباحث **Zimmer** وتتعلق بالخصوصية، احترام السرية،

التمثيل العددي، الكشف عن هوية الباحث، حماية بيانات المبحوثين، تلاشي الحدود بين العام والخاص.

كما أن مسالة ملكية بيانات الأفراد في المجتمعات الافتراضية قضية شائكة، مازالت حتى الآن تناقش من طرف المختصيين في القانون والتقنيين، الذين يعملون في مواقع الشركات التى تتيح إنشاء مجتمعات افتراضية مثل الفايسبوك والتوتير، فهناك من يعتبر هذه البيانات بمختلف أنواعها ملكية عامة، يستطيع الباحث الوصول إليها والحصول عليها دون شرط الانضمام إلى المجموعة أو الإشتراك فيها، باستخدام كلمة سر، والرأي الآخر يعتبر هذه البيانات ملكية خاصة للمجتمع الافتراضي، ويقوم مدير المجموعة بالسهر على حمايتها، ولا يمكن الإستفادة منها إلا بتقديم تسريح.

3.1.4 برمجيات جمع البيانات وتحليلها في المجتمعات الافتراضية: إن جمع البيانات من المجتمعات الافتراضية و تحليلها و فرزها، يحتاج إلى العديد من البرمجيات الأكثر تطورا، نتيجة ظهور مجالات بحثية تهتم بالعالم الافتراضي، مثل الحوسبة الاجتماعية وعلم الاجتماع الرقمي، حيث تساعد هذه البرمجيات الباحث في جمع البيانات بطريقة آلية وترميزها و تمثيلها بيانيا، وتعد البرمجيات - **CAQAS NODEXL**، من أهم هذه البرمجيات، إلا أن هذه البرمجيات تواجهها عند استخدامها عدة عوائق نذكر منها:

- **صيغ البيانات:** إن كل برمجية تستخدم لجمع البيانات من المجتمعات الافتراضية تخزنها وفق صيغ خاصة بها، وتؤدي مهام محددة مسبقا، فهناك برمجيات تمكن من إنشاء شبكة علاقات افتراضية مثل: **GHEFI**، وهناك من تقوم بتحليل تعليقات الافراد، مثل: **NVIVO** ، وكل برمجية من هذه البرمجيات، تتعامل مع البيانات وفق صيغ محددة، لا تكون عامة بين مختلف البرمجيات، وإنما يتحتم على الباحث أن يقوم بعملية تحويلها (**convertir**)، حتى تتمكن مختلف البرمجيات من تحليلها و

الاستفادة منها، و هذا ينتج عنه فقدان بعض البيانات، لأن تحويلها من صيغة إلى صيغة لا يكون بطريقة مثلى.

- **برمجيات البوت:** والبوتات هي عبارة عن أجزاء من شفرة حاسوب، تبدو مثل حسابات أشخاص حقيقيين، وتظهر فجأة بأعداد كبيرة لدعم أو نزع الشرعية عن مواضيع وأهداف محددة، أو لنشر معلومات مضللة، في محاولة لزرع الخلافات العامة أو عدم الثقة بالحكومات، المنظمات الإخبارية أو مؤسسات أخرى (موسوعة اعلام الي).

ففي المجتمعات الافتراضية ليست كل الحسابات بشرية، بل هناك حسابات مبرمجة أو بوتات، وظيفتها نشر الاخبار المضللة والمزيفة، وتستهدف الأشخاص المؤثرين في المجتمعات الافتراضية، مما يجعل المعلومات والأخبار التى تنشرها هذه البوتات، تمتاز بخاصية الفيروسية؛ أي سريعة الانتشار (دليل عملي للبوتات). حيث تجعل تحليل الباحث للمجتمع الافتراضي غير مطابق للواقع، لأنها تضخم البيانات والمعلومات الموجودة فيه، يتحتم على الباحث وقتها القيام بجهد مضاعف لكشفها وإعاقة عملها أو إزالتها، حتى يتمكن من دراسة المجتمع الافتراضي بدقة.

- **محدودية البيانات:** هناك مجتمعات افتراضية تنشأ في منصات رقمية ولا تتيح إمكانية جمع بياناتها بطريقة آلية، لأنها تجعلها مشفرة وغير مفتوحة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك منصة: تيليغرام(**telegrem**)، أو منصات تتيح جمع عدد محدود من البيانات وليس كلها، وهو ما يجعل دراسة هذه المجتمعات مبتورة وجزئية، وبالتالي تكون النتائج المتوصل إليها غير دقيقة.

4. الإشكالات النظرية في دراسة المجتمعات الإفتراضة:

إن توخي الموضوعية في البحوث السوسيولوجية، يستدعي آليات بحث دقيقة، يمكن من خلالها تحقيق المعرفة العلمية الصحيحة للمواضيع المدروسة، واستيفاء الاشتراطات المعرفية التي تعطي للبحث صفة العلمية، في ضوء الرصيد النظري والمنهجي الذي يؤطر المجال المعرفي الذي تنتمي إليه تلك المواضيع، من منطلق دور النظرية في توجيه البحث الاجتماعي، وتزويده بالأطر البحثية الصحيحة، كتشكيل الجهاز المفاهيمي، وآليات وضع الفروض، وغيرها من الأطر، التي تضبط البحث وتبرز انتماءاته وهويته المعرفية.

إلا أنه، وبالنظر إلى خصائص المجتمعات الافتراضية، باعتبارها كيانات اجتماعية، أمدت الباحثين "بالكم الهائل من البحوث، التي أسهمت في إعادة تركيز وتحدي، وإعادة صياغة السياقات لمفاهيم ظلت ثابتة فترة طويلة في البحث السوسيولوجي" ، فإن الدراسة السوسيولوجية لها يفرض على الباحث تناولها في إطار السياقات النظرية ما بعد الحداثية، التي فرضت "تحولا أوجد نقاشا حادا داخل النظرية السوسيولوجية، حول ما إذا كان هناك نظام معرفي جديد أم أن هناك تصحيحا للمسار النظري"، و يضع الكفاءة التفسيرية للنظرية السوسيولوجية على المحك، وينذر بالوقوع في خلل ابستيمولوجي مرتبط من جهة بقدرة أو عجز النظرية السوسيولوجية في تفسير التفاعلات الافتراضية لتغطية اشتراطات المعرفة العلمية، ومن جهة أخرى بالتطورات النظرية، " لكون المعرفة العلمية في تطور مستمر، ولا أحد يستطيع أن يجزم أنها وصلت إلى ذروتها" .

إن قدرة أو عجز النظرية السوسيولوجية في تفسير الظواهر الافتراضية مرتبط بملاءمة الواقع الافتراضي مع الواقع الفعلي، في وصف و تحليل التفاعلات والعلاقات الاجتماعية في كلا الواقعين، وتجاوز مرحلة الشك الابستيمولوجي في مدى هذا التلاؤم، بآليات تضع مقارنة البناءات الاجتماعية الافتراضية والبناءات الاجتماعية الفعلية، في مواجهة التغيرات وحتى التحولات الدلالية للمفاهيم السوسيولوجية المألوفة، وتنوع أشكال تمظهر الأفراد في هذه البناءات، وتمثلاتهم لأفعالهم وهوياتهم، و بالتالي قد تكون النظرية السوسيولوجية التي تفسر الواقع الفعلي، مصدرا للأفكار المسبقة التي قد تؤثر على الرؤية

الصحيحة و التحليل الصائب للوقائع الافتراضية، يفترض أن تحدث معها قطيعة معرفية تؤدي بالضرورة إلى إنتاج مادة معرفية جديدة تأخذ بعين الاعتبار الخصائص البنائية والعلائقية للأوساط الافتراضية.

إن ما نتكلم عليه في هذه الورقة، من إشكالات ابستيمولوجية، هو في الحقيقة مؤشرات على تأسيس حقل بحثي سوسيولوجي جديد، بدأت تتبلور مبادئه ضمن ما أصبح يعرف بعلم الاجتماع الرقمي، الذي قد يشكل حقلا معرفيا جديدا، بجهاز منهجي ومفاهيمي ونظري، يفضي إلى خلق تصورات جديدة لواقع افتراضي، لا زلنا نجهل عنه الكثير، ولا نعرف إن كان واقعا اجتماعيا جديدا، متصلا، منفصلا أو متكاملا مع الواقع الفعلي.

6. خاتمة:

إن البحوث السوسيولوجية على ما هي عليه من تنوع وثراء: منهجي ونظري ، وإنتاج معرفي وفير، تبقى دائما في حركية دائمة وبحث مستمر عن البدائل المنهجية الصحيحة، التي تمكنها من سبر أغوار الظواهر الاجتماعية في الفضاءات الافتراضية، بآليات قد يجد الباحث نفسه فيها مضطرا للجمع بين عدة مناهج أو أساليب بحثية وتحليلية، لتفسير للوقائع الاجتماعية، وفق ما تقتضيه المواضيع المدروسة من تغيرات، تشمل تمثلات الفرد لنفسه وبيئته و علاقاته ووعيه وطموحه وفهمه لأفعاله، من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه بالرغم من توفر البيانات الميدانية، وإتاحيتها بكم هائل، إلا أن التعامل معها و تقصيها، يقتضي – لا محالة- الاعتماد على التقانات والبرمجيات الحديثة في جمعها وتحليلها، في ضوء ما يفرضه هذا الواقع المستجد، الذي يتميز بالمرونة واللامحدودية، في الزمان والمكان، إضافة إلى تبعات الغموض الهوياتي للأفراد المتفاعلين، ومدى الالتزام بقواعد الانتماء فيها .

وبعيدا عن الالتزام الصارم بالتصورات والحتميات النظرية، التي يعتمدها الباحث السوسيولوجي في الإعلان عما تنطوي عليه حياة اجتماعية: واقعية كانت أو افتراضية، فإن الباحث يجد نفسه أمام مأزق تفسيري، إذا أخذنا بعين الاعتبار الخصائص البنائية

والوظيفية للمجتمعات الافتراضية، تجعل من الصعوبة بمكان إجراء المقاربات النظرية بصورة كاملة، وهذا يجبر الباحثين على تبني المداخل النظرية الأكثر حداثة، ذات التوجه التوليفي بين المنظورات المختلفة، وكذا ضرورة الاطلاع على الرصيد النظري للعلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى، الذي من شأنه أن يساعد في فهم وتأويل الأفعال داخل الفضاءات الافتراضية، حيث تمثل التقاطعات المعرفية بين العلوم اللإنسانية والاجتماعية في الدراسات الحديثة، رافدا أساسيا وإطارا نظريا وتفسيريا تكامليا، من شأنه أن يجعل الباحث السوسيولوجي يتجاوز كل إشكال ابستيمولوجي، قد يعصف ببحثه، ويحيد به عن الدقة والصدق الأمبريقي.

7 .التوصيات:

بناء على السياق الدقيق والواسع الذي تتسم به دراسات الواقع الافتراضي، فإن هذا البحث قد أفضى بنا إلى تقديم التوصيات التالية:

- ضرورة تميز الباحث بالحنكة والحذاقة العلمية، لضمان السيطرة والتمكن من اختيار أمثل للمناهج والأطر النظية الملائمة.
- أن يكون الرصيد المعرفي للباحث على درجة عالية من التحديث والاطلاع، خصوصا في مجالات استخدام التكنولوجيا، لارتباط بحوث الواقع الافتراضي ببرمجيات وأساليب إحصائية دقيقة وكثيفة.
- أن يكون رصيده المعرفي النظري ثريا، وأن يكون مطلعا على أهم البحوث والإنتاجات النظرية الحديثة، لحقول معرفية أخرى في العلوم الاجتماعية، والتي قد تنطوي على أطر تفسيرية، تساعده على التعمق في فهم الفعل الاجتماعي ودوافعه ومقاصده.

8. قائمة المراجع:

- أورتون، كيت و بريور، جونسون و نيك، (2021)، علم الاجتماع الرقمي منظورات نقدية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب.
- حمد النذير، عبد الله ثاني، (2017)، ابستيمولوجيا علوم الإعلام والاتصال، الجزائر، منشورات دار الأديب.
- ريجو، فيليب، (2009)، ما بعد الافتراضي: استكشاف اجتماعي للثقافة المعلوماتية، مصر، المركز القومي للترجمة.
- ليفي، بيار، (2018)، واقعنا الافتراضي، ماهو؟ وما علاقته بالواقع؟، البحرين، هيئة البحرين للثقافة والآثار.
- مارشال، جوردن، (2000)، موسوعة علم الاجتماع ج01، مصر، المجلس الاعلى للثقافة.
- عبد الحميد، صلاح وعاطف، يمنى، (2015)، الإعلام والفضاء الالكتروني، مصر، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي.
- لمياء، مرتاض نفوسي، (2021)، إشكالية التنظير في العلوم الإنسانية، الأردن، دار المناهج للنشر والتوزيع.
- نريمان، حفيان والطاهر، بصيص، (2021)، استخدامات النتنوغرافي في دراسة الفضاءات الافتراضية الإشكالية المنهجية والبدائل المتوفرة للباحثين، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج04، ع11، 660/641.
- أمين، بلقاسم بن عمرة، (2017)، النتنوغرافيا في دراسة الانساق الافتراضية.مدخل نظري ومنهجي، المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي، مج4، ع4، 52/38.
- أمين، بن بلقاسم بن عمرة، (2017)، المسوح الافتراضية: نحو فهم للرهانات الاجرائية والابستمولوجية، المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي، مج4، ع12، 192/165.
- عبد العال، محمود فتحي أ بو دوح، المتطلبات المعرفية لتجديد النسق المعرفي في علم الاجتماع، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ع11، 226/193.
- *the Social Media Research Foundation، Social network analysis tool NodeXL، https://www.smrfoundation.org/nodexl/*